

<<http://www.annahar.com/content.php?priority=3&table=kadaya&type=kadaya&day=Tue#top>>

نحو إسلام للمسلمات ؟
عزة شرارة بيضون
(أستاذة في الجامعة اللبنانية)

كنا مئتين وخمسين امرأة من سبعة واربعين بلداً، ومن الأعراف كافة، في ضيافة منظمة " أخوات في الإسلام" في كوالالمبور- ماليزيا. وذلك لعقد مؤتمر أطلقت في مطلع أعماله "حملة مساواة" العالمية- من أجل (إحقاق) العدالة والمساواة داخل الأسرة المسلمة(1). وقد دعنا هذه المنظمة غير الحكومية بصفتنا ناشطات نسويات ننتمي لبلدان من القارات الخمس سكانها مسلمات ومسلمون- بعضنا ينتمي إلى أكثرية السكان في هذه البلدان، وبعضنا الآخر من أقلياتها. ومع أن المسلمين العرب لا يشكلون أكثر من 12% من معتقي الإسلام في العالم، فقد كان حضور العربيات منظوراً، وكانت اللغة العربية إحدى اللغات الثلاث المتداولة إلقاءً وترجمة، (الإنكليزية والفرنسية هما الأخريان)؛ هي "سطوة اللغة" (التي هبط بها الوحي) على المسلمين من غير العرب، بتعبير إحدى العربيات المشاركات في هذا اللقاء، بلهجة تكاد تكون اعتذارية.

على امتداد أيام ثلاثة، وليال أربع، تكثفت في ساعاتها المحاضرات العامة ألقى أكثر من أربعين باحثة أكاديمية وناشطة اجتهاداتهن لتسوية دعواتهن من أجل المساواة في إطار الإسلام، وفي إمكانية تلاقيه مع شرعة حقوق الإنسان في الحقبة المعاصرة. وتوزعت المشاركات - وبضع مشاركين من الرجال أيضاً - في لقاءات حوارية متوازية بلغ عددها العشرين ليناقتن مواضيع ذات صلة. وقد تراوحت أصناف هذه المواضيع، تماماً كالمحاضرات، بين أن تكون "مجردة" صرفاً، وبين أن تكون عملية، بل تعليمية، غايتها تزويد الناشطات عدّة نضالية اعتمدتها مجموعات من بلاد مختلفة وأثبتت نجاعتها. فأصغينا إلى (المفسرة) الأكاديمية أمينة ودود، مثلاً، تتكلم عن "الإسلام في ما وراء النظام الذكوري"، كما حاضر الأكاديمي رئيس "مجلس الإيديولوجيا الإسلامية" محمد خالد مسعود عن "الفقه كمبنتي اجتماعي". كما خُصصت جلسة لأديان مختارة، البوذية والمسيحية واليهودية، في إطار الكلام عن الدين والنسوية. لكننا استمعنا أيضاً إلى ناشطات من أكثر من بلد إسلامي وعربي يروين لنا بالكلام، وبالصورة المتحركة وبالصوت، أحياناً، مسارات نضالهن، تجليات نجاحاتهن وأسباب إخفاقاتهن. وتعلمنا أيضاً تكتيكات استخدمتها ناشطات في حقوق الإنسان، وفي إطار الدين الإسلامي، للترويج وكسب المناصرة لدى الحكام ولدى رجال الدين، وبحسب مقتضى الحال.

من جهتها، فإن اللقاءات الحوارية المتوازية انقسمت بالتساوي بين ان تكون "معرفية" وبين أن تكون "تطبيقية". وطرحت ميسرات النقاش في "المعرفية" من هذه اللقاءات الحوارية الأدوات التفكيرية للنصوص المقدسة والنتائج التي توصلن إليها بنتيجة ذلك التفكير، فيما دارت اللقاءات الحوارية التطبيقية حول تحويل نتائج البحوث إلى مادة نضالية، والاستفادة من مهارات طوّرت في أيامنا المعاصرة من أجل جعل التواصل والتشبيك والتحالف وحل النزاعات والترويج وكسب المناصرة، ناهيك بالاجتهاد واساليب مقارنة النصوص المقدسة إلخ من مهارات، تفيد في النضال من أجل تحقيق المساواة في القوانين والممارسات، وفي البحث عن الأساليب المناسبة لذلك النضال في المجتمعات الإسلامية. واخترق ذلك كله لقاءات يومية لمجموعة من عشرات الشبابات من مختلف البلدان(2) (كوكس الصبايا). هؤلاء، وأعمارهن لم تتجاوز الخامسة والثلاثين، دُعِين بصفتنهن مناضلات مستقبلات سيعملن،

بالضرورة، على استدامة الحملة فلا يتراجع زخمها مع ثقل همّة مُطلقاتها، وأكثرهن تجاوز سن الصبا، كما هي حال أكثر الحركات النسوية في بلاد الجنوب.

في الجلسة الأولى، المخصصة لإطلاق الحملة، وبعد أن قرأت المصرية الشابة هديل الخولي "دُعاء" مؤثراً راجية نجاح المؤتمر، افتتحت زينة أنور، إحدى النساء الثماني اللواتي أسسن منظمة "أخوات في الإسلام" الماليزية، ومديرة مشروع الحملة – حملة مساواة- بخطاب احتفالي معلنه فيه "بأن اجتماعنا معاً – نحن المئتين وخمسين امرأة، من سبعة وأربعين بلداً - في كوالالمبور، لهو مدعاة في حد ذاته للاحتفال... وكما يُقال لا يوجد اقوى من فكرة حان وقتها!".

وتابعت لتقول بأن حملة "مساواة" صُممت "لتجمع عالمات / علماء وناشطات/ نشطاء راغبين بالعمل لكفالة التعامل مع النساء المسلمات على أنهن مساويات للرجال في القدر والكرامة أمام القانون، وداخل الأسرة والمجتمع. وحيث إن الإسلام يُستخدم كمبرر للكثير من الظلم الذي تتعرض له النساء، وأيضاً لمقاومة الإصلاحات المقترحة إدخالها على القوانين المُجحفة، فقد شعرنا أنه من المهم أن يكون تركيز حركة "مساواة"- بصفتها تهدف في الأساس إلى بناء المعارف بأن تحقيق التغيير، من أجل إحقاق المساواة والعدالة، ضروري داخل الإسلام، وممكن في آن معاً".

واختتمت أنور خطابها آملة أن "تقودنا حركة مساواة إلى يوم يدرك فيه العالم الإسلامي أن مطالبة النساء بالعدالة والمساواة ليست غريبة عن الإسلام، ولا تشكل تهديداً له، بقدر ما هي نابعة منه"، معلنه بلهجة الأنوثة الحازمة بأنه "لا مساومة على العدل والمساواة. فهذه القيم ينبغي أن تكون في جوهر فهمنا لما نعينه بكوننا مسلمين ومسلمات في عالمنا المعاصر".

حملة مساواة أو MUSAWAH- كما جاءت بالأحرف اللاتينية، لا تقف عند المساواة حدوداً، بل تتجاوزها إلى العدالة. ف"العدالة" كما "الرحمة" لا تغييران في الكلام الذي تمّ تداوله عن الإسلام عل ألسنة هؤلاء النساء، لتستويا ثابتتين في جوهر الدين الإسلامي، كما يُدركنهُ. وهما في جوهر الشريعة ومقاصدها و"العبادات" التي تنطوي أحكامها على المساواة التامة بين النساء والرجال. اما "المعاملات" – وهي أحد موضوعي الفقه- فشأنها شأن آخر. هذه الأخيرة، وكما جاء في أكثر من محاضرة، وعلى لسان أكثر من مناقشة، مرتبطة بالسياقات التاريخية والثقافية والمجتمعية التي أنتجتها. لذا، فإن الاجتهادات بشأن "المعاملات"- وقوانين الأحوال الشخصية والعائلية من بينها- متعددة بتعدد منتجها من الفقهاء. ولما كانت وظيفة الفقه، كما هو معروف، تسهيل حياة الناس عبر البحث عن حلول لأمر طرأت لاحقاً على حيوات الناس، ولم يتطرق إليها النص المقدس مباشرة، فإن أحكامه تفاوتت تبعاً لأزمة الناس وأمكنتهم، وتباينت تبعاً للمدارس الفقهية الكثيرة؛ وهو ما يُثبت، دون شك، أن تلك الأحكام (خاصة تلك التي طاولت الأحوال الشخصية) قابلة للتغيير، تماماً كما هو تغيير أحوال الناس. ألم تلغ العبودية في البلاد الإسلامية لأنها ما عادت مقبولة في زمننا المعاصر... وذلك بالرغم من أنها مذكورة في القرآن؟

النص مقدس لكن السياق ليس مقدساً. والسياق مهم في فهم النص، فلا يُقرأ نصّ بدون سياق. لذا، فإن مهمّة إعادة تفكيك النصوص الفقهية وموضعها في سياقاتها التاريخية والاجتماعية والثقافية من المهام الملحة التي تدرج في أهم أهداف "حملة مساواة": اي "بناء المعارف وتطويرها". هذا التفكيك ينبغي أن يأخذ في الاعتبار المعاني التي تُسبغها النساء على مُعاشاتهن واختبارتهن للواقع الحالي، وبما يتناسب مع مصالحهن، وبالنظر إليها عبر عدستهن الخاصة؛ وذلك في إطار مقاصد الشريعة بما هي تجسيد للعدالة وللرحمة. ولعلّ أهم ما ينبغي على النساء إدراكه هو أنهن مساويات في الإسلام للرجال، ويحق لهن تأويل النصوص المقدسة أسوة بهم. وأنه من غير المقبول، في زمننا المعاصر، أن يحتكر المشايخ والعلماء والملاي من الرجال مساحة التأويل والاجتهاد، ولا أن يصادروا الكلمة الأخيرة بشأن النساء.

•••

لم أكتب عن مؤتمر "مساواة" فور عودتي من كوالا لامبور(3). كنت محتاجة لاستيعاب المشاعر التي أثارها فيّ اللقاء مع مئتين وخمسين امرأة من سبعة وأربعين بلداً من كلّ الأعراف. لم تكن المعلومات والأفكار المتداولة كثيرة ولا معقدة، بل إن "عبقريتها" وقوتها كانتا، على الأرجح، في بساطة تعبيراتها، وفي نبرة أصوات هؤلاء النساء الواثقة بحقهن في "امتلاك" الإسلام. ناهيك عن مبادراتهن المعرفية المنهجية، وعن القناعة الصلبة، والفعل المنظم الهادف (ومؤتمر كوالا لامبور من بعض آياته) المتطلعة كلها إلى استرجاع إسلامهن من محتكريه.

ذهبت إلى مؤتمر "مساواة" بكثير من الفضول وبقليل من التفاؤل. عدت وقد سكنت في قناعة بأن مواءمة المعايير والقيم العالمية المعاصرة مع أحكام الدين الإسلامي ممكنة، لأن للنساء المؤمنات به مصلحة ملحة في ذلك، ولأن الدوافع التي تحفزهن للبحث عن سبيل تلك المواءمة لا يمكن نعتها بالمترفة.

(1) لمعرفة أدقّ وأكثر شمولاً بمجريات المؤتمر الذي أطلق هذه الحملة وبمنظّماته، وللوقوف على أهداف الحملة وأطر عملها وخلفياتها النظرية، ونتاجاتها الورقية والسمعية - البصرية أنظر(ي) الوصلة:

www.musawah.org

(2) وقد مثل لبنان المقيم من هذه الفئة صبا مرعشلي من "الهيئة اللبنانية لمناهضة العنف ضد المرأة"، فيما جاءت من أستراليا اللبنانية الأصل أميمة سكرية لتمثل "شبكة أوبرن للتنمية المحلية".

(3) عقد المؤتمر بين 12 شباط و18 منه، 2009.